ألبير الاستعماري و كامي الإنساني يكتبان عن بؤس القبائل

الدكتور:سليم بتقة

قسم الآداب و اللغة العربية

كلية الآداب و اللغات

جامعة بسكرة– الجزائر

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل الأسس الإنسانية لصرخة الظلم التي أطلقت لإغاثة الحالة الاجتماعية–الاقتصادية الكارثية للقبائل من طرف ألبير كامي، ضمن سلسلة مقالات كان قد نشرها ما بين 5 و 15 جوان 1939 في صحيفة الجزائر– جمهورية *Alger–Républicain* . استناداً إلى تعاليم نظرية ما بعد الاستعمار postcoloniale . يعتقد أن كامي – ربما دون أن يدرك– رأى القبائل في "بؤس بلاد القبائل" من خلال لوحة مشوهة للتمثيل الكولونيالي. واستنادا إلى الأدلة التي عثر عليها في النص وبالرجوع إلى تصنيف الفاعلين في الساحة الكولونيالية الذي وضعه "ألبير ممي" Albert Memmi فإن التقرير الصحفي لألبير كامي لم يفلت من انتباه الكاتب القبائلي مولود فرعون في روايته "ابن الفقير" *Le Fils du pauvre* وهو عمل أدبي كلاسيكي بالتعبير الفرنسي، حيث صحح فيه مولود فرعون تصور كامي عن القبائل، فابن الفقير أرادت أن ترد بطريقة غير مباشرة عن "بؤس بلاد القبائل".

Abstract:

This study questioned the foundations of humanist of the cry of injustice launched to the aid of the socio-economic condition disastrous of the Kabyle people by Albert Camus in the series of articles he published between 5 and 15 June, 1939 in *Alger-Républicain*. Based on the teachings of postcolonial theory, we back that Camus, perhaps without realizing it, pereceived the Kabyles in « Misery of Kabylie » through the filtrer distorting of colonialist representation. On the basis of signs found in the text and with reference to the typology of the colonial actors stage established by Albert Memmi, we have deduced the contents of his report on the Kabyle people bring up the attitude of benevolent colonizer. The investigation report of Camus, did not escape the attention of the kabyle writer Mouloud Feraoun. In the « son of the poor », a classic work of kabyle literature of French expression, Mouloud Feraoun corrects the perception of the Kabyle people by Camus. The son of the poor was an indirect reply to « Misery of Kabylie.

"بؤس القبائل " أو قبائل البؤس؟

ولد ألبير "كامي" في 13 نوفمبر سنة 1913 من أب ألزاسي وأم إسبانية في عائلة متواضعة جداً، في الذرعان Mondovi، وهي مدينة ساحلية تقع على بعد 400 كم شرق الجزائر العاصمة. بعد عام فقد والده. عاش محروما من حنان الأب الذي فقده خلال الحرب العالمية الأولى، وهو في السنة الأولى من عمره. كبر "ألبير كامي" بالجزائر العاصمة، وفيها تلقى دراسته الثانوية بثانوية "بيجو" Bugeaud. ومن المعروف أن أقلية من الجزائريين من يتابعون دراستهم بهذه المؤسسة "البيضاء"، بل حتى الأقلية منهم والذين توصف ظروفهم بأنها متواضعة، لا يختلطون بالفرنسيين "الرومة"* *roumis*، نظراً للحاجز البسيكولوجي الذي يفصل الطائفتين.

حين بلغ السادسة والعشرين بدأ مسيرته في الكتابة الصحفية والتي كشفت فيما بعد عن الشخصية الأكثر تأثيراً في الأدب الفرنسي لما بعد الحرب. تأثر بالأفكار الثورية "لباسكال بيا" Pascal Pia مؤسس الصحيفة الاشتراكية " الجزائر جمهورية " *Alger Républicain* (التي أصبحت فيما بعد "صدى الجزائر" *Echo d'Alger*). عمل الشاب كامي مع هذه الصحيفة من سنة 1937 حتى 1940.

كانت "الجزائر جمهورية" اللسان الرسمي للجبهة الشعبية، والناطق باسمها، وكان الخط التحريري لهذه الصحيفة هو الدفاع عن جزائر متعددة نظريا دون تمييز في العرق أو الدين ولكن مع ذلك جزائر فرنسية، باسم نخبة جزائرية متعلمة (الأهالي والأقدام السوداء). ناضلت هذه الصحيفة من أجل الوفاق والأخوة بين جميع الجزائريين. ومع ذلك، فالمثالية والروح المتحررة التي أشادت بها " الجزائر جمهورية " كانت متأثرة بالوعي الاستعماري. في عددها الصادر في 9 أبريل 1939، قدمت الصحيفة نداء إلى"العبقرية الاستعمارية الفرنسية"، وتذكر بممتلكاتها الاستعمارية الشاسعة فيما وراء البحار، وتمجد "الجهود الاستعمارية الساعية إلى جعل من السكان الأصليين متعاونين حقيقيين" تابعين " لإمبراطوريتنا" الفرنسية التي تمثل الجزائر فيها جوهرة بفضل " ثرواتها الطبيعية التي لا تقدر بثمن " و " الروابط العميقة للجزائريين من كل الأعراق والمعتقدات التي تربطهم بالمتروبولMétropole."(1)

كانت الصحيفة تدعو إلى مقاربة استعمارية اندماجية، من شأنها أن تعزز علاقات الصداقة بين "الكولون" والمستعمرين داخل جزائر متعددة الثقافات، تتحرك تحت المظلة

الإمبراطورية الفرنسية الخالدة. يمكن استنادا إلى ما سبق معرفة إيديولوجيا التوجه العام للصحيفة التي يعمل بها "ألبير كامي".

يبدو الوقت الذي استغرقه "كامي" في إنجاز تقريره الصحفي بشأن القبائل ذا أهمية قصوى والسبب أن طول الفترة الزمنية التي استثمرها في إجراء تحقيقه الميداني اعتبرت فاصلة بالنسبة لعمق ونوعية "نظرته" إلى منطقة القبائل، و صحة القيمة المعرفية لاستنتاجاته. في المجموع دامت الزيارة التي قام بها "كامي" عشرة أيام على أكثر تقدير. إقامة "كامي" في أرض القبائل حسبت على أساس معلومة ناشر "بؤس القبائل" الذي يطلعنا على تاريخ سفره، والذي تم في أواخر شهر ماي 1939 .

حصل الاتصال بين "كامي" والناشر في أرض القبائل في 27 ماي لإعلامه بانطباعاته الأولى، مما يشير إلى أنه وصل على الأكثر في 26 ماي. ومن المرجح جداً أنه ترك منطقة القبائل بعد ذلك في 3 جوان لكي يكون في مكتبه لتحضير نشر المقال الأول من تقريره بعد يومين أي 5 جوان 1939. وبالتالي تكون زيارته قد دامت ثمانية إلى تسعة أيام على الأكثر.

خلال هذه الزيارة السريعة كتب "كامي" (بؤس بلاد القبائل) *Misère de la Kabylie* الذي نشر في شكل سلسلة من أحد عشر مقالا ما بين 5 و 15 جوان 1939 نشرها في جريدة *Alger Républicain*، ثم قامت مؤسسة "زيرام" Zirem للنشر ببجاية بإصدارها في كتاب سنة 2005م، في منطقة القبائل الأمازيغيّة. في تلك المنطقة الريفيّة الوعرة (100 كيلومتر جنوب الجزائر العاصمة)، وقف الرجل الذي سيصبح من أشهر كتّاب القرن على مأساة إنسانية صادمة، ليوقّع على أثرها أشهر "روبورتاج" في مسيرته المهنية باسم مستعار هو اسمه العربي: محمد بن سالم. نشر "الروبورتاج" وفيه أخبر "كامي" عن عائلة عاشت من دون طعام ليومين أو ثلاثة، وعن خمسة أطفال هلكوا إثر تناول أعشاب برية سامّة... أرّخ "كامي"لتلك الحقائق، وأرفقها بصور"فوتوغرافية"، فاضحاً ممارسات الإدارة الاستعمارية التي سارعت إلى إرسال موفد إلى المنطقة ذاتها، فأنجز تحقيقاً مضاداً يتغنّى بـ"فضل فرنسا على أهالي القبائل"... لكنّ التاريخ لم يحتفظ إلا "بروبورتاج" "كامي" الذي وجّه رسالة علنية إلى الحكومة الفرنسية: "إذا كنتم غير قادرين على فعل شيء، فاتركوا هذا الشعب يعيش فخوراً ومنسجماً مع ذاته". يكتب "روجيه غرونيه" Roger Grenier في كتاب "ألبير كامي، شمس وظل" *Albert Camus, soleil et ombre* (1987): "تحمل مقالات كامي الصحافية

نظرةً مختلفةً عن مقالات أندريه جيد في أفريقيا السوداء، أو مقالات أندري مالرو في الهند الصينية، لأن العلاقة التي كانت تربط كامي بالجزائر كانت علاقة الابن بأرض المنشأ". وصحيح أن ما ورد فيها من حقائق هو جزء من تاريخنا يستحق النشر باعتباره كاشفا للأوضاع المزرية التي كان يعيشها الجزائريون في ظل الاحتلال الفرنسي، وصحيح أيضا أنه تحدث بأمانة عن هذا البؤس حين قال "ليس أشد وقعا على المرء من أن يرى ذلك البؤس في أحضان أجمل بلد في العالم... ولن تجدي عبارات الحب والإحسان التي يتشدق بها الفرنسيون، فما يحتاجه البائسون هو الخبز والقمح، ويد تمتد إليهم تمد لهم مساعدات ملموسة وما عدا ذلك فهو نظري ومثالي." (2) لكن الكاتب "ألبير كامي" اكتفى بوصف هذا البؤس الرهيب، ولم يربطه بالاستعمار الذي مارس سياسة الأرض المحروقة على أجدادنا لإرغامهم على الاستسلام، هذه النصوص المجهولة من طرف جمهور عريض في الجزائر وفي أماكن أخرى، تعرض حالة الفقر المدقع الذي عاشته بلاد القبائل، وقد أحدث نشر المقال صدمة لدى الكولون واضطرابا داخل الرأي العام.

من الجائز إدراج تقرير "كامي" في الاتجاه المضاد لحركة عقارب الساعة، حتى أن جماعة المعمرين "المتعصبة" أقامت بدافع الغيرة عقبات ضد أي رغبة في التغيير. لا أحد شعر بالاستياء من جرأته بمقارنة القبائل باليونان حارسة الحضارة الغربية. آخرون كانوا منزعجين من الحالة المخزية لمنطقة القبائل التي عرضها "كامي" على الملأ، بسبب إهمال الإدارة الاستعمارية.

أوردت جريدة *La Dépêche algérienne* تقريرا مضادا بعنوان "قبائل 39" *Kabylie39*، بقلم "فريزون روش" ,Frison Roche، هاجم فيه تحقيق "كامي". "أنا لست من نفس رأي البعض؛ فرنسا فعلت أشياء جميلة وكبيرة في بلاد القبائل، وينبغي لإنكار مثل هذه الحقيقة إغماض العيون طوعا والإصرار على عدم رؤية إلا الجانب السيئ من الأمور" (2) هذا يعني أن المشاكل الكبرى للقبائل وفقا للصحافة الاستعمارية، تعود إلى عوامل داخلية، كفقر التربة، الحرارة ، المناخ، غلق أبواب الهجرة باتجاه فرنسا بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929، التي قلصت مناصب الشغل، بالإضافة إلى ارتفاع سعر القمح، مقابل انهيار أسعار محصولي التين المجفف وزيت الزيتون، اللذين تنتجهما بلاد القبائل. يضاف إلى كل هذا المسلم الكسول.

التعبيرات الاصطلاحية الدالة على الكسل الفطري للعربي كثيرة في المجتمع الاستعماري (مثل: العربي الكسول أو الأقدام في المروحة، أو الاستعارة العنصرية عمل عربي، ومعناه: عمل فاشل). "كامي" يدرك تماما مدى انتشار هذه الأحكام العنصرية المهينة في عصره، لذا حاول إحداث تعديلات عليها لإضفاء نوع من الموضوعية على تحقيقه.

وباتهامه بالولاء للشيوعية، يضطر" كامي" إلى مغادرة وطنه الأصلي بعد بضعة أشهر إلى منفاه في باريس أين شارك بنشاط خاص بالمقاومة السرية للاحتلال النازي بفرنسا. في نظر السلطات الاستعمارية، فإن مضمون تقريره الصحفي كان مستوجبا للوم، وهو ما يفسر العقوبة السياسية الشائنة بالنفي في حقه. توفي "كامي" في حادث سيارة في 4 جانفي 1960، وهو في سن 46 عاما.

وللتذكير فإن "ألبير كامي" كان يؤمن بجزائر الاستعمار (من الرومان إلى الاحتلال الفرنسي)، ولا يتصور مستقبل الجزائر إلا في إطار الحضارة الفرنسية، وعليه فقد كان يعارض الحركة الوطنية الجزائرية الداعية إلى التحرر من الهيمنة الفرنسية، والعودة إلى إطار الحضارة العربية الإسلامية، وينكر عليها ربط مصير الجزائر بالعالم العربي، بحجة أن تركيبة السكان في الجزائر عديدة، تشمل العرب والأمازيغ والأتراك واليهود والفرنسيين. وكتب ذات يوم موضحا أن مصطلح "الجزائري" خاص بالعناصر الأوروبية، أما العرب والأمازيغ فهم مدرجون ضمن مصطلح "المسلم". وعليه فإن إصرار أنصار قافلته على منحه الجنسية الجزائرية المسلمة، هو خرق لإرادته الحرة التي جعلته يختار أمّه فرنسا.

ومن أخطائه القاتلة أنه سوّى بين بطش الجلاد ودفاع الضحية، حين وضع عنف الاستدمار الفرنسي المعتدي على الجزائر، وعنف المدافعين عن كرامتهم وسيادة أرضهم في كفة واحدة، ثم اعتبر الثورة الجزائرية إرهابا من صنع الامبريالية العربية التي تقودها مصر الناصرية.

رواية ابن الفقير ترد على كامي:

ولد الروائي مولود فرعون في قرية تيزي هيبل بولاية تيزي وزو يوم 18 مارس 1913 بالقبائل الكبرى من عائلة فقيرة تمتهن الفلاحة، يؤكد أن هويته فرضت عليه من طرف السلطات الاستعمارية، و أن اسمه العائلي هو آيت شعبان: " هل تتصور أيضا أنه عندنا أدعى فرعون؟ خطأ، إنه اسم فرنسي، لقد تم إلصاق عديد الأسماء بالعائلات القبائلية حوالي

1890 وهي لا تتناسب مطلقا مع الاسم الحقيقي ، لا يهم، ومع ذلك نتقبل كل تلك التكشيرات التي فرضت علينا مع علمنا أنها بدون معنى. إننا نحوز فيها على البساطة والراحة. " (5) التحق بالمدرسة الابتدائية في قرية تاوريرت موسى في سن السابعة . كان يقطع مسافة طويلة يومياً بين منزله، و مدرسته سعياً على قدميه في ظروف صعبة. كان مثالا للطفل المكافح الذي يتحدى الصعاب المختلفة ، و مصارعا بارعا لواقعه المؤلم الذي امتزج فيه الفقر والحرمان والاستعمار، و بهذا الصراع استطاع التغلب على كل المصاعب التي تقف في وجهه، مما أهله للظفر بمنحة دراسية للثانوي (بتيزي وزو) ، ثم فاز بمسابقة الدخول لمدرسة المعلمين ببوزريعة بالجزائر العاصمة التي تعرف فيها على "إيمانويال روبليس" Emmanuel Roblès، فتمكن رغم وضعه الصعب، من التخرج منها ليعود إلى قريته تيزي هيبل التي عين فيها مدرساً سنة 1935 ، ليتزوج قريبته ذهبية التي أنجبت له سبعة أطفال، في الوقت الذي بدأ يتسع فيه عالمه الفكري و أخذت القضايا الوطنية تشغل اهتمامه. ثم التحق بمدرسة قرية (تاوريرت) سنة 1946 في المدرسة نفسها التي استقبلته تلميذاً، وعين سنة 1952 مديرا للدروس المكملة بالأربعاء ناث إيراثن ، ليعين سنة 1957 مديرا لمدرسة الناضور "لكلو صلامبيي" بأعالي العاصمة تاركا منطقة القبائل .

في سنة 1951 ، كان مولود فرعون في مراسلات مع "ألبير كامي"، حيث أتم في 15 جويلية "الأرض والدم " التي حاز بفضلها سنة 1953 على جائزة الرواية الشعبية.

في سنة 1960، عين مفتشا للمراكز الاجتماعية التي أنشئت بمبادرة من الباحثة "جيرمان تيون" بشاطو "رويال" ببن عكنون أين لقي مصرعه مغتالا على يد المنظمة الإرهابية (أواس) يوم 15 مارس 1962 أربعة أيام قبل وقف إطلاق النار .

بدأ مولود فرعون أولى رواياته المتعلقة بسيرته الذاتية "ابن الفقير " *Le Fils du pauvre*سنة 1939، ولم يتمكن من طبعها إلا سنة 1950 على حسابه الخاص، وبقي حتى سنة 1954حيث نشرت له دار "لوسوي" Le Seuil(فرنسا) طبعة منقحة من70 صفحة متعلقة بفترة مدرسة المعلمين ببوزريعة ، كما نشرت له سنة 1957" الدروب الوعرة" "ترجمة لأشعار سي امحند أومحند" ، أما يومياته ، التي ألفها خلال الفترة الممتدة بين 1955 و1962 فقد سلمت في فيفري 1962إلى دار "لوسوي" ولم يتم إصدارها إلا بعد وفاته . ترجمت أعماله إلى عدة لغات منها العربية، الألمانية، الروسية وغيرها.

الرواية الأولى للكاتب الجزائري، مولود فرعون، "ابن الفقير" يتتبع فيها حياة فورولو منراد الشخصية الرئيسية في القصة.

يصور هذا الكتاب الذي ينتمي للسيرة الذاتية مرحلة الطفولة والمراهقة للكاتب في إحدى قرى بلاد القبائل الجبلية، حيث كان راعيا للغنم، وتلميذا مواظبا ، ثم أصبح معلما. وهذه ليست قصة أيّ كان بما أنها تتتبع حياة بسيطة جداً لأناس هم العناصر الفاعلة لأحداث الرواية. وكون آباؤهم فقراء، كان مصير فورولو أن يصبح راعيا للأغنام، لكن وبدافع من طموح قوي وأحلام لا تغيب، كان هذا الرجل– الطفل– يكافح باستمرار للهروب من مصيره.

كان وحده المؤمن بمستقبل مختلف عن أهله، ومع ذلك كان جد متعلقا بهم. عايش العمل الشاق لوالده الذي كان يجد صعوبة في تلبية احتياجات الأسرة، كما عايش صبر وكرم والدته. لا شيء كان يفلت منه ؛ لا رقة إحدى عماته، أو غيرة أخرى، لا قلة ارتباطه ببنات أعمامه وإخلاص أخواته. هذه الحياة الجميلة والصعبة في نفس الوقت التي يرويها مولود فرعون مفعمة بالعاطفة، في مجتمع يحظى فيه الكبار بالاحترام ، والاستماع إلى نصائحهم وفيه يتم حماية الضعفاء والصغار. يعيشون حياة فقيرة و يعيشونها في سعادة. الشيوخ هناك يسهرون عليها. إننا نتعلم مع فورولو وأهله العيش متحدين ومتضامنين ومشاركين في كل شيء.

لم يكن فظا تجاه والديه لأنهما لم يكونا متحمسين لنجاحاته المدرسية. هذه المنحة التي تأخرت، أليست قوة لمصيره المتصل بمصير كل سكان القرى؟ ولكن كان غرضه أن ينجح ويثبت للآخرين أنه لا يمكن أن يظل راعيا للغنم. مولود فرعون يكتب كما يتحدث، واصفاً بلاده الأصلية القبائل كشخص آخر يصف بيته. كل شيء هناك: العادات والتقاليد الشخصيات، الأزياء، ولا سيما المناظر الطبيعية الجميلة التي تمكن من جعلها تافهة مع تلك اللافتة الخاصة التي تنفر السياح مع اعتذارات أراد من خلالها القول: "هنا بيتي، عودوا إلى دياركم..."

التفكير في "بؤس بلاد القبائل" لن يكون كاملا دون تقديم صورة مختلفة لهذه المنطقة من الجزائر التي تمثل النقيض المثير للصورة التي قدمها "كامي" لها. إنها عبارة عن صورة حية عن قبائل مولود فرعون ، هذا المستعمَر، ابن الفقير الذي أصبح معلما، والذي وصف

بالاندماجي بسبب ارتباطه بالثقافة واللغة الفرنسية، وقد صور عالم القبائل في سيرة ذاتية بعنوان "ابن الفقير" *Le Fils du pauvre* .

يستمد هذا النص أحداثه من الواقع بأسلوب شفاف واضح ومختصر، وفقا لكتابة حكيمة تنقل المعلومات، حيث يتأكد معها المحتوى الاثنوغرافي. تدخّل الراوي في الأحداث يبدو قليلا ومضمرا تقريبا موجها لعرض الأشياء، تظهر اللغة السوسيو–اثنوغرافية لرواية فرعون القبائل دون وساطة، في أسلوب يهيمن فيه الحاضر على زمن الحكي، ويتداخل الخيالي مع الرمزي. واقعية فرعون تركز على موضوع بلاد القبائل كلها.

رواية ابن الفقير تحمل تكذيبا لمحتوى التحقيق الصحفي الذي أعده "كامي" عن بلاد القبائل، والذي حلل فيه الوضع من منظور ما بعد –الكولونيالي post colonialiste. تعكس رواية فرعون قلق الكاتب لتأكيد قبائليته في فضاء الكتابة. إن كتابة فرعون دون شك محددة بقلق الشهادة وتأكيد الهوية أين يجتمع التعبير عن "الأنا" الفردي و "النحن" الجماعي للبحث عن فضاء ضمن الوضع الإنساني العالمي في مواجهة الاستعمار الجاحد.

في بلاد القبائل لا يوجد فقراء ولا أغنياء، هكذا أراد أن يقول فرعون، هناك فقط مستعمَرون. رغبته في الحديث عن أهله مظهر لبحث هوياتي. سوف تظهر هذه الهوية تدوينات معينة والتي تصنع الزمن التاريخي القبائلي، فضاء منطقة القبائل، السمات الثقافية واللغات القبائلية المتعلقة بالحياة اليومية لقرية في بلاد القبائل.

" كان لوالدي مسكن في أقصى شمال القرية، في أسفل الحي، نحن من كروبة آيت مزوز من عائلة آيت موسى، منراد هو الاسم المستعار، عمي وأبي أحدهما يسمى رمضان، والآخر لونيس، ولكن في الحي جرت العادة أن يدعيا "أولاد شعبان" أنا لا أعرف لماذا؟. لقد ولدا يتيمين حتى أن والدي لم ير جدي. كان من الممكن أن يسميا أبناء تسعديت، جدتي. يفضل أعمامهم وأبناء أعمامهم، لا شك أن يستمر الناس في مناداتهم باسم أولاد شعبان حتى يظهروا للناس أن لليتامى سندا، وأن الاثنين يقومان في الواقع وفي القانون مقام الذي لم يعد موجودا".(6)

يعرض فرعون في المقطع السابق الإنسان القبائلي، لا يبدو أنه ظل لبؤسه، إنه إنسان مثل بقية الناس الآخرين، لسكان القبائل أسماء وألقاب (رمضان آكلي، حليمة، موسى) انتماء، وأنساب. لديهم أسر تعمل تقريبا كجميع العائلات الأخرى. إنهم يحبون ، يكرهون، يغارون،

يغنون، يفقرون، يعيشون ويموتون مثل غيرهم، بغض النظر عن عنصرهم أو أصلهم. على غرار المجتمعات الأخرى، بلاد القبائل تعيش على الأفراح والأحزان. السمات الثقافية المميزة للمنطقة ، كانت تورد بتفاصيل دقيقة.

"كانت جدتي هي المسؤولة عن معيشتنا في عائلة منراد. (...) النساء يعددن وجبة الطعام،لكن بعد أن يصبح الكسكسي مطبوخا، كانت تتولى هي نفسها توزيعه في الأطباق. لم يكن غير اللحم الذي يشاركها في تقسميه الابن الأكبر: إنه عمل رجالي. كانت جدتي تتولى تغذية الأسرة تماما مثل الدجاجة الأم التي تعطي لكل من أفراخها غذاءه. وبطبيعة الحال، فهذا العمل الذي يتطلب صفات عظيمة لأنه من المعروف أن القبائل لا يسبحون في البذخ .ومع ذلك، كما يحمل دائماً الكبير أو الأكثر احتراما في العائلة ، (...) فمن المؤكد أنه سيؤدي واجبه واضعا في الاعتبار المصلحة العامة ". (7)

بالرغم من أنهم يعيشون في فقر مدقع، لا يبدو على سكان القبائل حسب فرعون الاستسلام، كما كان يظن "ألبير كامي". يهاجم الكاتب القبائلي الكاتب الفرنسي بالقول : " ليس هناك أي سبب لكي لا نرى في بلاد القبائل ما نراه أيضا في أماكن أخرى".(8)

في رواية ابن الفقير، يعرض الكاتب بفخر أصوله وثقافته، كأنه يريد القول للمتلقي أن جميع الثقافات والحضارات لها قيمة، ولا يمكن أن تكون ظلا لأخرى، أو تعيش تحت رحمتها. الاقتباس الذي يلي يذكرنا بالعقد الاجتماعي "لجان جاك روسو" Jean-Jacques Rousseauمستنكرا الخطاب الاستعماري حول موضوع القبائل، مشيرا إلى أن القبائل تنتمي إلى مجتمع له تاريخ وثقافة يمنحانه هوية حقيقية.

" يبدو أن أسلافنا، يتجمعون بالضرورة. (...) لقد عانوا كثيرا من العزلة لكي يستمتعوا بشكل صحيح بأفضلية العيش متحدين. (...) نحن نخشى العزلة كما نخشى الموت. (...) "نحن جيران نعيش للجنّة وليس للجحيم". هذا أكثر أمثالنا جذابة. (...) لدينا العديد من قصائد التي تتغنى بالأبطال، أبطال يتميزون بالحيلة مثل "اوديسيوس" Ulysse فخورون مثل "تارتارين" Tartarin وكذلك هزيلون مثل "دون كيشوت" Don Quichotte "(9) .

وإضافة إلى تقديمها تكذيبا، قلبت به ادعاءات "ألبير كامي"، تخبرنا رواية ابن الفقير أنه لا توجد ثقافات عظيمة وأخرى دنيا، ولكن فقط ثقافات مهيمنة وثقافات مهيمن عليها. خلق فرعون بفضل أسلوبه في الكتابة، صورة طبيعية عن قومه جعلت من القبائل بشرا مثل غيرهم

في العالم. لا يختلف إذن سكان القبائل بسبب فقرهم، ولكن الظروف التاريخية للاستعمار هي من كانت مصدر هذا الفقر.

يعكس مضمون رواية فرعون ثقافة الأجداد التي ليست "ستاتيكية" ولا هي ميتة، ولكن بالأحرى حية "ديناميكية" خاصة بالنسبة لشخص يتغذى منها بشكل منتظم، عكس ادعاءات "كامي" الذي يتهم القبائل بالتخلف الحضاري بثلاثة قرون. وإدراكا لنظرة المستعمِر المأخوذة بالغريب والغرائبية، طالب فرعون بالحق في الاعتراف، مستخدما القلم الذي يتحالف مع ذلك الذي يستخدمه الاثنوغرافي والروائي، ويطالب بالوجود الشرعي للقبائل في فضاء العالمية. هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها قبائلي عن نفسه وأرضه وأهله بلغة فرنسية التعبير.

استطاعت رواية ابن الفقير أن تلغي صور الكآبة والخمول للقبائل، التي كان قد جمعها الشاب "كامي" وتكذب الادعاءات الأساسية، محاولة إعادة بناء واقع حميمي ومختلف، بتقديم واجهة يستطيع القارئ من خلالها أن يشاهد بلاد القبائل، بوصفها منطقة من الجزائر العميقة معروضة من الداخل من طرف أحد أبنائها. كان فرعون يتبع غرضاً مزدوجاً: إضافة إلى أنه كان يسعى إلى تثبيت القبائل في هذا الوجود العالمي، كان يستهدف أيضا رفض الغرائبية الظل التي كان المستعمرون يرونه من خلالها . بمساعدة هذا المسعى "يعلم" فرعون القارئ الهوية المسلوبة من قومه بسبب ثقل الاستعمار من خلال مشاهد ولوحات مألوفة منسوجة في لغة "الرومي " مع أنها مألوفة في الضاحية. ومما لا شك فيه أنه من خلال الدور "الاثنوغرافي" والتاريخي لشهادته، في بعديه "الأوتوبيوغرافي" والجمعي، فإن هذا النوع من الكتابة يمثل وسيلة وغاية في حد ذاتها. لقد أراد فرعون أن يؤسس لذاكرة.

بين الرواية و المقال:

كيف يمكن مقارنة رواية فرعون بمقال "كامي" ضمن تصور وتفسير ثقافة تابعة (بلاد القبائل)؟ نسجل بداية التباين بين الوسائط المستخدمة في الرواية والمقال، حيث يمكن تمييزهما بملاحظة الفرق من حيث الزمنية والفضائية، والرؤى ووجهات النظر. التحقيق الصحفي، كما يشير إلى ذلك اشتقاق كلمة"(صحيفة) ظرفي، وتأثيره سريع الزوال. في المقابل تسمح الكتابة الروائية بنوع من التعقيد أكبر من ذلك الذي نجده لدى الصحيفة.

الرواية الواقعية، كما هو الحال لدى فرعون، تغطي بصورة عامة زمنية أوسع وفضائية ومعضلة متصلة بالشخصيات، بالراوي وبعواطفهم.

الرواية أكثر عمقا وأكثر منطقية في عرضها للوقائع. إضافة إلى بعدها الشعري والترفيهي، يمكن أن يكون أثرها إجمالا تربويا وتعليميا بفضل جانبها الإعلامي والعاطفي، إن تأثير الرواية على القارئ ممتد أليس صحيحا أن كل واحد منا يحمل بصمة –على الأقل– لرواية أثرت فيه إلى الأبد؟.

البعد المكاني والزماني الذي بنيت عليه الرواية، دمج الثقافة، لغات السكان، ومسار الحياة التي كثيرا ما تبشر بالتغيير، كلها من الخصائص التي تجعل الرواية تحيا من جديد من خلال واقع تصفه بعض الأحيان، ولكن للتقرب أكثر من الحقيقة، وذلك بواسطة واقعية عميقة عجنت فيها المادة الروائية حيث نجح الكاتب في التقرب من القارئ.

يمنح الكاتب صوتا لكل شخصية من شخصياته، و هذه التعددية الصوتية تمنح تعددا في التصورات، وتعطي بالتالي للرواية تعقيدا لا يمكن أن يصله مقال وحيد الصوت.

الصحافي يقدم للقارئ ما رآه، وما يعتقد أنه رآه، أو ما يريد أن يراه القارئ. إنه يستجدي في الحال ثقة القارئ. المقال مؤسس على (ضمير المتكلم) الذي يسعى للإقناع.

شخصيات المقال الصحفي موجودة فقط لدعم وجهة نظر الصحفي. إنها الاعتبارات المتعلقة بذاتية الصحافي التي تجعل من المقال الإعلامي في كثير من الأحيان آلة لشغل الرأي العام، وأداة للتأثير "لصناع الرأي".

وعلى العكس، يعيد الروائي إنتاج الواقع بطريقة أكثر نزاهة. قدرته –بصفته "فنانا "– الاستيلاء على جوهر الأشياء بواسطة صنعة قلمه التي تسمح له بالذهاب إلى أبعد من نظرة الصحفي الخفية. الصحفي يحقق، إنه يشيد بنية حجاجية، ويعالج الفعل في نية مسبقة من أجل إقناع جمهوره بصحة ما يتحدث عنه.

لم يتردد الصحفي طلبا للإثارة في تضخيم الأحداث التي يختارها إذا لزم الأمر، متخذا في كل ذلك المبالغة، و العاطفة. موقف كتابته الصحفية يذكر بالمثل شعبي: "كل ما يطبع ليس بالضرورة صحيحاً. " النزعة الإعلامية للصحفي إقناع المرسل إليه برسالته. قليلون هم أولئك الصحفيون الذين يمكن أن نقول أن لديهم "كتابة" و كتاباتهم لها دعامة جمالية، أقل تقديرا والتي تؤدي إلى اختلاف في وجهات النظر، وفتح الطريق أمام تعارض في الرأي، و هذا ما لا يتمناه أي صحفي.

من خلال التركيز على البؤس؛ ظاهرة اجتماعية فريدة من نوعها، أراد "كامي" وكما يفعله أي صحفي آخر أن يحتكر انتباه القارئ. حالة الحرمان المادي المتقدمة لمنطقة القبائل استهوت الصحافي "كامي" وطبعت تعليقاته الخالصة، كما يتضح من المقتطف التالي:

" إذا كنت أفكر في بلاد القبائل، فليس في مضائقها الملأى بالزهور، ولا في ربيعها الزاخر في جميع الأطراف، ولكن هذا الموكب من المكفوفين والعجزة، من الخدود الجوفاء ، ظل يتبعني في صمت طيلة كل هذه الأيام."(10)

من خلال عدسته كصحافي، لم يحتفظ" كامي" سوى بصورة واحدة، لوحة بائسة لبلاد القبائل بلون واحد، تلك المجسدة للبؤس المدقع. ولذلك، كان تصوره لبلاد القبائل أحادي البعد مغرض، وصفه للوضع الاجتماعي لسكانها جاء ناقصا. بلاد القبائل تحتوي أيضا على النساء والرجال، العواطف، الحياة، التاريخ والهوية. هذا الجانب الهام منها، لم يشر "كامي" له إلا عرضاً.

القبائل الذين أشار إليهم في تقريره كانوا بكل تأكيد حاضرين، ولكن كمتغيرات بسيطة تعمل –وفقا للحالة– على إظهار أهمية حججه المنمقة بهدف رفع صورة الإمبراطورية الأم تماشيا مع عظمتها الاستعمارية.

للدفاع عن فكرة إنقاذ القبائل، لجأ "كامي" إلى منطق هو بالأساس تجاري و ثانيا إنساني. وكونه صحافيا متمرسا فهو يبحث دوما عن المثير، بإصرار كبير على إحداث أكبر قدر ممكن من التأثير على قارئه. باختصار، كان "كامي" يشاهد بلاد القبائل من الخارج، مثل سائح يبحث عن العجيب والغريب. إن تواتر توظيف المحددات (أسماء الإشارة والصفات) التي تكثر في النص تظهر المسافة الفاصلة بين الكاتب وموضوعه، يضاف إلى هذا انقسام عالمين يختلفان عن المشهد الاستعماري، والذي نلاحظه من خلال استخدام الضمائر" هم" في مقابل "نحن" التي تطبع نص "كامي". لا محالة، لن تؤدي هذه المسافة بالضرورة إلى الوقوف جيدا على الحقيقة بمنطقة القبائل في مجملها.

حركة التباعد التي تميز منهج الكتابة عند"كامي"، تقرب قلمه من قلم محقق في الخدمات الاجتماعية التابعة لإدارة الحكومة الاستعمارية... فكلماته توحي بالعجرفة، ففي وصفه "الحيواني" للقبائل مثلا:

"هذه الجبال تكاد تضيق بالسكان، في حين أن أي بلد في أوروبا لا يعرف مثل هذه الكثافة أو حتى هذه الأسراب من الأطفال التي تتخبط في وحل المياه الجارية ".(11)

وغني عن القول إنّ الصورة التي كونها "كامي" عن بلاد القبائل تتبع وضعه الاستعماري بالإضافة إلى قصر مدة إقامته وتوقعات صاحب العمل بإصدار تقرير يكون فيه المحتوى متماشيا مع المنظور الافتتاحي لصحيفة " الجزائر جمهورية ".

بالنسبة لفرعون، فهو من المنطقة، عاش فيها طوال حياته، إنه يعرف بلاد القبايل من الداخل بالإضافة إلى تقديم عرض حال لواقع معين، كما عايشه. و خلافا لـ"كامي"، يكتب فرعون بوجدانية، وتفاصيل مدعمة، عن الناس، عن تفاعلاتهم، وإنسانيتهم.

تزيل الواقعية القوية لفرعون التعميمات المتسرعة وتسامح النمط الصحفي لـ"كامي". إن قراءة مقاطع معينة من ابن الفقير تترك بوضوح الانطباع بأن فرعون قد اختار المسار الروائي لرسم لوحته الخاصة عن منطقة القبائل من أجل التعريف بأهله.

يبين فرعون أن عملية ظهور الأدب المحلي دون شك يرتبط بالظروف التاريخية لإنتاجه: فعل الكتابة يصبح مرادفاً لاستعادة الكلام المصادر، تمثيل للنفس بالنفس، تكذيب وتعديل قدم بكل أشكال التمثيل والاستغلال للذات من طرف المستعمر.

بالنسبة لمولود فرعون، و–خلافا للكتاب المغاربة الفرانكفونيين لفترة ما بعد الحرب–، كان لزاما عليه أن يكشف عن حقيقة عالم المستعمرين: حقيقة مختلفة تماما عن تلك التي يبحث المستعمر على فرضها. و الاقتباس التالي من سيلفي تينو Sylvie Thenault يلقي الضوء على دوافع فرعون للكتابة عن نفسه:

"دراسة حياة وعمل مولود فرعون يؤدي إلى رؤى ثابتة في الواقع: عن مسألة الهوية الجزائرية المتعددة، تاركة المكان للقبائلي، للفرنسي، و للإسلام. وعلاوة على ذلك، الدرس الذي يعطيه فريد و في غاية الدقة لأنه لا يترك نفسه منغلقا في فئات بسيطة، أو حتى تبسيطية والتي شكلتها حرب الجزائر. إنه يقدم تكذيبا لبعض الأسباب المؤدية إلى قيم مقللة. الحاجة التي كان يشعر بها فرعون في شهادته عن واقع منطقة القبائل، وجعلها تحيا و في كل تعابيره، دليل على مسؤوليته تجاه قومه".

أمام تفكك الذات التي تسبب له فيها الاستعمار، اختار فرعون طريق الرواية، الخيال الذاتي كوسيط مفضل للرد على تحقيق "كامي"، وهو رسم لوحته الخاصة عن منطقة القبائل

وذلك بخلق رؤية لعالم القبائل اليومي في أبن الفقير، وسرد أحداث عن حياة طفل، خطاب مولود فرعون دون شك ينم عن طبيعة سياسية. ترك على مدى الحياة بصمة لا تمحى من مهنته كمعلم، سعى فرعون من خلال وسيط القلم إلى تبديد المفاهيم الخاطئة، ورسم الفرحة على الضمائر الساكنة بسبب الجهل. وفي روح شارل تايلور Charles Taylor يطالب فرعون الاعتراف بالهوية القبائلية بموضوعه الأدبي، ومن خلاله، هوية شعبه.

لم يتساءل "كامي" أبدا عن بقاء وضع القبائل كما هو عليه. بمساعدة قلمه، أعاد فرعون وضع بؤس بلاد القبائل من زاوية أخرى هي الإقصاء والتهميش ورفض الاعتراف طيلة فترة الاحتلال. إنه يعيد النقاش الذي بدأه مواطنه في اتجاه البحث عن الحق المهضوم وهو الاعتراف بالاختلاف والخصوصية الإثنية. هذا هو الدرس الذي قدمه لنا المعلم الذي كتب ابن الفقير بقلمه. لقد خاض فرعون معركة ضد الظلم الذي تولد من استعمار قومه... على غرار "كامي" الذي قاوم من أجل قومه وبلده، أثناء الاحتلال النازي لفرنسا.

إن الهدف من نشر مقالات "كامي" حول بؤس القبائل هو لفت أنظار فرنسا إلى وجوب تغيير سياستها الفاسدة التي خلقت الفجوة بين فرنسا المستعمِرة والجزائر المستعمَرة، من أجل سحب البساط من تحت أقدام الحركة الوطنية الجزائرية المؤمنة باستقلال الجزائر. ولعل تذكير الكاتب في مقالته الأخيرة المؤرخة بتاريخ 15 جوان 1939م، والتي جاء فيها قوله: "نقد السلوك السيئ للفرنسي، أفضل من فضح بؤس بلد فرنسي." لأهمّ دليل على دفاعه المستميت عن الاستعمار الفرنسي، وحجة دامغة على إيمانه بالجزائر الفرنسية. ثم أكد ذلك أثناء الثورة التحريرية عندما صرح أن السؤال المحوري في رأيه هو: متى تصير الجزائر فرنسية، وليس متى سترجع جزائرية؟ إنه كاتب بارع في الدفاع عن ظاهرة الاستعمار، مثلما أكد المفكر العربي الكبير إدوارد السعيد.

خاتمة:

النصان يتبعان أهدافا مختلفة تماما. فـ"كامي" ككولونيالي يكتب بدافع المصلحة وبمنطق يسمح بوضوح ظهور أيديولوجية الاستعمار العطوف. لقد تمنى "كامي" نوعا من الاستعمار "الأخوي"، استعمار بوجه إنساني. إنه باسم هذا الاستعمار يطور أفكاره ذات النزعة الشعبوية الداعية إلى وضع سياسة لصالح بلاد القبائل، وتدافع عن مشروع بناء اجتماعي

والذي سيحقق الكرامة للقبائل. ومن هنا يأتي السؤال: كيف يمكن أن يكون المرء كريما في ظل نظام العبودية؟

في الاتجاه المقابل لـ"كامي" يكتب فرعون عن بلاد القبائل. لقد كان مشغولا بتأكيد هويته وتأسيس الذاكرة في مواجهة مؤسسة الإنكار الاستعمارية. في رواية ابن الفقير دعا فرعون القارئ إلى مشاهدة بلاد القبائل في صورتها الحقيقية، ممررا بطريقة واضحة صورة وصوت أهله، ديكور و طبيعة المنطقة، و بنمط من الجمالية البسيطة، دشن فرعون عصر الأدب القبائلي، في فترة من التاريخ، حيث أجزاء كاملة من الذاكرة وهوية القبائل كانت مهددة من طرف مؤسسة وحشية هدفها القتل والتخريب.

أعمال فرعون تدعونا للتفكير في عقدة الغريب. ابن الفقير في الواقع هي إعادة اكتشاف للذات طريق سار عليه مناضلو التعبير الثقافي القبائلي : معمري، آل عمروش، كاتب ياسين جاووت و آخرون. ونظرا للأهمية التاريخية لشهادته اعتبر مولود فرعون واحداً من الكتاب المغاربة الأوائل الناطقين بالفرنسية حيث طالب للقبائل، للبربر، وبإصرار، لجميع "معذبي الأرض" بالحق في الوجود في هذا الفضاء من العالم. من وجهة نظر "اثنوغرافية"، كتاب فرعون يمثل حلقة في التنمية الثقافية للشعب القبائلي.

فرعون و "كامي" دافعا بالتأكيد عن نفس القيم الاجتماعية، ولكن من معسكرين متعارضين منظورين متعاديين. وكونه ابن فقير ككل القبائل والمستعمرين في زمانه، كان فرعون على اقتناع بأن الوعي بإمكانات الشخص تمر من خلال الحصول على التعليم والمعرفة، أفضل ضمان للتحرر من نير الاستعمار. في هذا الفضاء الأدبي لابن الفقير هناك عناية فائقة أعطيت للتعليم، إطار مهني كرس فرعون نفسه له طوال حياته. قمة المفارقة، أنه دفع ثمنا لحياته بسبب التزامه بخدمة شعبه، ولأنه استطاع أن يتحدث عن أهله خارج الطوق الاستعماري. ففي ممارسته لمهامه اغتيل مولود فرعون بوحشية.

لم يصف "كامي" غير ما شاهده في تسعة أيام من الخارج، مقاربة تزين نظرة المسافر الأوروبي. لقد كان "كامي" متخلفا عن قبائل تحت الهيمنة ، ولكن فقط تحت زاوية غيريته الضرورية. في ابن الفقير يقدم مولود فرعون للقارئ بلاد القبائل مختلفة عن تلك الصورة التي رسمها "كامي" والذي كان يظن أنه فهمها. لا يحدد وصف فرعون بالجانب الكمي من حياة لسكان القبائل، ولكن يعطي قيمة للجانب النوعي كالعواطف، والعلاقات الإنسانية، روابط

التضامن في الزمن و في الفضاء. في الوقت نفسه، يعلن عن قطيعة مع التقليد الأدبي الشرقي، الذي يثبت ويجمد صورة المستعمر في "بورتريه" ذاتي وجبري. يحتل فرعون مكانة مرموقة بين كتاب لما بعد الاستعمار "الفرانكفونيين". هو القبائلي الأول في تاريخ قومه الذي أخذ القلم وكتب عن واقع أهله بلغة المحتل. وبطريقة غير مباشرة، يهدف فعل الكتابة لديه إلى استعادة الكرامة والهوية الخاصة للشعب القبائلي التي حرمهم منها الاستعمار الفرنسي الغاشم.

هوامش الدراسة:

---

*اسم يطلقه الجزائريون على الفرنسيين .

1-Cite dans Les Algériens musulmans et la France (1871-1919) (Paris: PDF, 1968)

2http://www.monsieurbiographie.comlcelebritelbiographie/rogerjrison_roche-3656.php

3-Sylvie Thenault, Mouloud Feraoun. Un écrivain dans la guerre d'Algérie. *Vingtième Siècle.* Revue d'histoire, 63(1999).

4-Dejeux, Jean. Littérature Maghrébine de langue française. Ottawa: Editions Naaman,
1999.

5-Feraoun, Mouloud. Le Fils du pauvre. Paris: Editions du Seuil, 1954.

6-Achour, Christiane. Anthologie de la littérature algérienne de langue française. Paris:
ENAP-Bordas francophone, 1990.

7-Albert Camus, Essais (paris: Bibliothèque de Ia Pléiade (paris : Gallimard), p 1965

8-Charles Taylor, Multiculturalism and The Politics of Recognition (princeton, N.J.: Princeton University Press, 1992).

9-Camus, Albert. Misère de la Kabylie. Bejaia, Algérie: Editions Zirem, 2005.

10-ibid

11-ibid